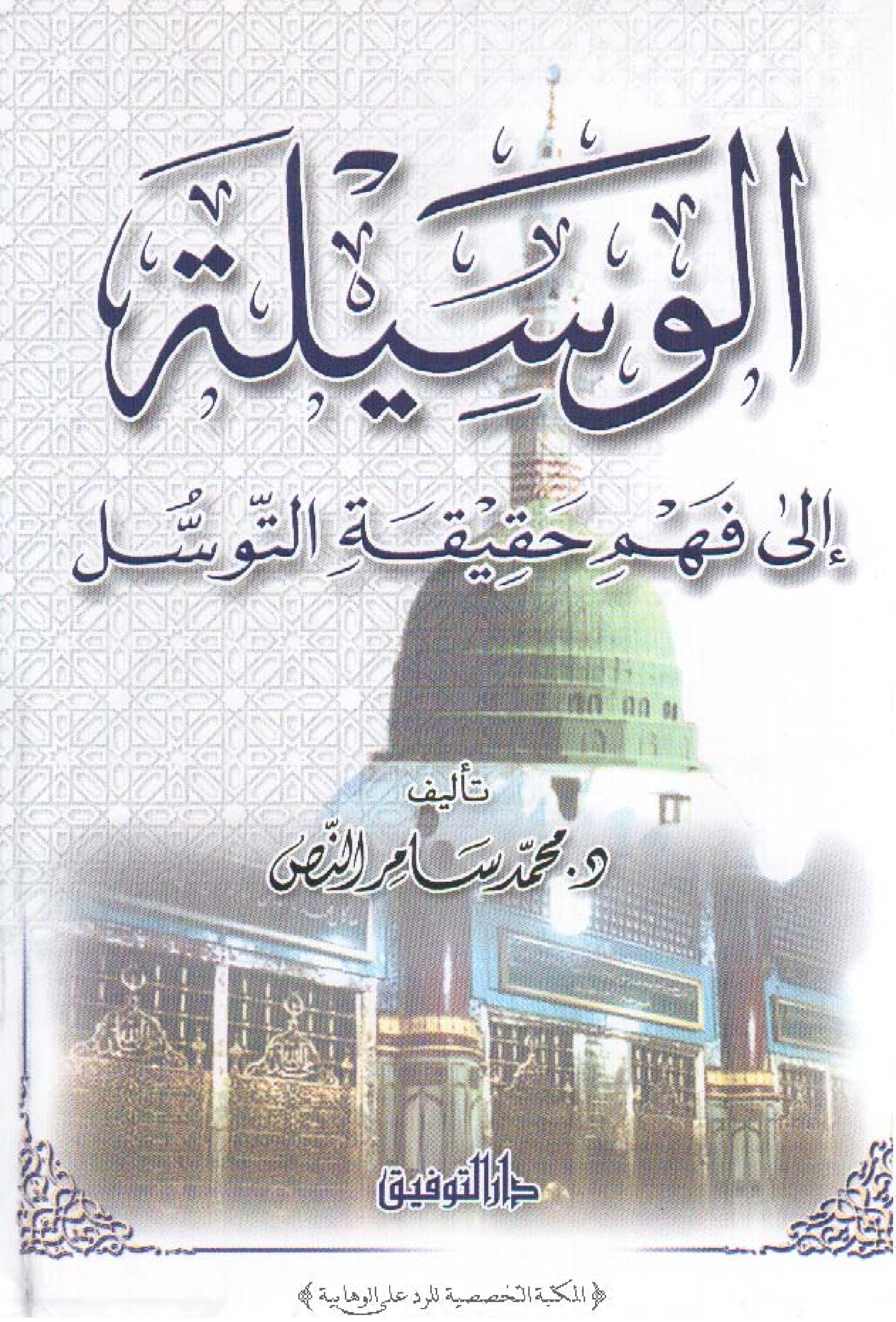
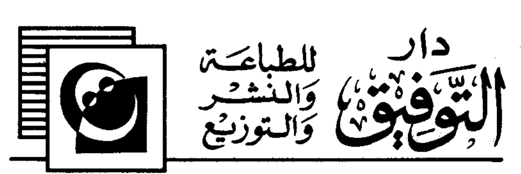


الوسيلة
إلى فهم حقيقة التوسل
تأليف
د. محمد سامر النص
دار التوفيق
المكتبة التخصصية للرد على الوهابية


الوسيلة
إلى فهم حقيقة التوسل

الطّبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

التنضيد والإخراج: مركز اسكندرون للكمبيوتر (٦٣٣٤٥٢٦)



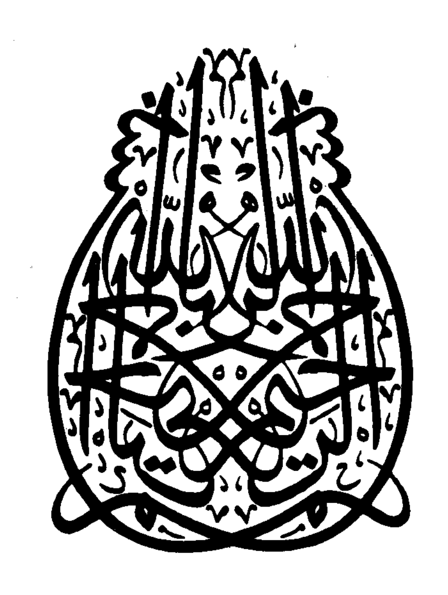
سوريا - دمشق - هاتف: ٦٦٦٠٩٠٥ - ٣٧١٧٥٢٠
لبنان - بيروت - هاتف: ٦٥٥٣٨٣



تأليف

د. محمّد سامر النّص

دار التوفيق



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله المتعالي في عزته، العزيز في علوه، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه، ليس كمثله شيء، هو الغني عن العالمين، ولا يؤوده حفظهم، وهو القاهر فوق عباده، ولا يخفى عليه شأنهم، خلقهم لعبادته، وأمدهم برزقه وعنايته، واختص منهم من شاء لنبوته وولايته، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على حبيب الله الأعظم، ورسوله المفخم، ونبيه المعلم، باب الله الواسع، الحائز لجميع الفضائل الجامع أسوة الخلائق، ومنبع الحقائق، وكنز الدقائق، وعلى آله مجامع الندى وأصحابه نجوم الهدى ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فيقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨] خلقهم لرحمته وغذاهم بنعمته، وأتم عليهم فضله بأن اصطفى منهم أناساً لتبليغ دعوته، جعلهم أئمة وأسوة وقدوة ثم أعطاهم من الوسائل ما يلحق الضعيف بالقوي، ويرفع المقتصد إلى درجة السابق، فسبحانه وبحمده لا نهاية لنعمه ولا حصر لآلائه، يقول شيخ مشايخنا: «**أعلم أن الله تعالى لما خلق الخلق خلقهم أصنافاً وجعل في كل صنف خيارا، واختار من الخيار خواص وهم المؤمنون، واختار من المؤمنين خواص وهم الأولياء، واختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهم الأنبياء، واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم، واختار من النقاوة شرذمة قليلة هم صفاء النقاوة**

المروقة وهم الرسل أجمعهم، واصطفى واحدا من خلقه هو منهم...» ويؤيده الحديث الشريف عند أحمد والترمذي من رواية المطلب بن أبي وداعة، وفيه... «**إن الله خلق الخلق فجعلني في خيرهم، ثم جعلهم فرقتين فجعلني في خيرهم فرقة، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبيلة، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفسا»** فهو صلى الله عليه وآله وسلم آخذ بحجزنا عن النار وبعضنا يتقحم عليه، وعندما أمره الله بتبليغ رسالته، كذبته الأشقياء وبرروا ذلك بتنزيههم الله تعالى أن يكون له رسول من البشر ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤] ولما حملهم على السيف رسول الملاحم، ظهر منهم المنافقون الذين ﴿قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقين: ١] أقروا بالرسالة ظاهراً مع التكذيب بكل متعلقاتها، وما إن انتقل إلى الرفيق الأعلى حتى ظهرت نوابغ المرتدين الذين شككوا برسالته بعد وفاته، وظنوا أن كراماته تنقطع بها، وفي أمثالهم نزل ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣] ولما سل عليهم خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سيف الله، رجعوا عن دعواهم صاغرين من الحرب المجلية إلى السلم المخزية.

وقد حذرنا الله من مغبة إيذائه صلى الله عليه وآله وسلم وجعلها مقرونة بإيذاء الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧] وضرب لنا مثلاً فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩] فلا يحسن بنا أن نتقرب إلى الله تعالى بانتقاص أوليائه ونقرن توحيده بالغض من

مقام أحبابه، وتنزيهه بالحط من أهل محبته ووداده، كيف والله سبحانه يغضب لأوليائه كما يغضب الليث الحرب. وهذا ما حدا بي إلى كتابة هذه الرسالة إيضاحاً للخلق وإقامة للحجة، وإن كنت أعتقد أن كل ما فيها ظاهر جلي وبديهي عند من أنار الله قلبه بالإيمان، وأسأل الله السداد والتوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

توطئة مهمة لفهم البحث

قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] هذه الآية ظاهرها يوهم التناقض عند من لم ينعم فيها النظر حيث أثبت الله في آخرها ما نفاه في أولها (وما رميت إذ رميت) لو كان معنى الرميين واحداً أما إذا عرفنا حقيقة الرمي من الله تعالى، وحقيقته من رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم زال الإشكال فأهل السنة والجماعة متفقون على معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وحديث ابن عباس رضي الله عنهما عند الترمذي وأحمد وغيرهما «....**واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك**...» فلا نافع ولا ضار ولا رافع ولا خافض ولا معز ولا مذل...إلى آخره على الحقيقة إلا الله سبحانه ونسبة كل هذه الأفعال إلى الله تعالى غير نسبتها إلى المخلوق، فهي حقيقة لله مجازاً لغيره أو على العكس على حسب الخلاف بين علماء العقائد، وما يهمنا من ذلك أنه لا يوجد اشتراك بين الله تعالى ومخلوقاته في ذلك إلا بالاسم فقط، فكما أن ذاته تخالف الذوات فكذلك صفاته وأسماؤه تخالف الصفات والأسماء، وبذا يزاح الإشكال عن كثير من ظواهر الآيات والأحاديث التي توهم التناقض مثل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ...﴾ [التوبة: ١٠٣] مع قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤].

ومثل قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦] مع قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] ونحوها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] ومثل قول القائل: عبد الله مع قوله عبد بني فلان، أو قولنا لله تعالى أنت مولانا مع قولهم فلان مولى فلان وبهذا يتضح لنا جلياً عموم المعنى في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] فنسبة العلم إلى الله غير نسبته إلى المخلوقات ونسبة الحكمة واللطف وكل ما خطر ببالك كذلك، وإذا كان ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما يقول عن الجنة وهي مخلوقة إنه لا اشتراك بين ما ورد عن نعيمها من عنب ونخل وغيرهما وبين نعيم الدنيا إلا بالاسم فما بالك بعظمة الله وجلاله.

ملاحظة:

كثر اقتران اسم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كتاب الله العزيز بلفظ الجلالة رفعاً لذكره صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد في تفسير ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] وأخرج أحمد والنسائي وابن ماجه عن حذيفة رضي الله عنه «**أن رجلاً من المسلمين رأى رجلاً من أهل الكتاب في المنام فقال له: نعم القوم أنتم لولا أنكم تشركون تقولون ما شاء الله وشاء محمد فذكر ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد**»، فمن تواضعه صلى الله عليه وآله وسلم دلنا على طريق الأدب في ذلك حفظاً لجناب الربوبية، ولكن ترى كثيراً من الناس يقرنون بين اسمه سبحانه وبين أشياء يأنف كثير من الناس من قرنها

بأسمائهم بعد ذكر «ثم» ظناً منه أن هذا مطابق لما تقدم، ونسوا مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقربه من ربه وكونه ياقوتة والناس كالحجر، فلا يجمل بنا أن نقرن بين هذه الأشياء والاسم الجليل اعتماداً على الفصل بـــ«ثم» قال الشاعر:

ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

إن فهم هذه التوطئة يغني عن البحث، عند من أنار الله بصيرته، ولكني- اعتماداً على الله وثقة به- أزيد الأمر إيضاحاً فأقول:

تعريف التوسل

هو لغة: التقرب، والوسيلة هو ما يتقرب به، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وشرعاً جلب نفع غير مستحق أو دفع ضر قد وجب (علماً بأنه لا مكره له سبحانه فالمقصود بالمستحق ما أوجبه الله تعالى على نفسه تكرماً وفضلاً).

وفائدته: رفع درجة القبول، والتوجه بمن له جاه.

وهو دال على المحبة أو الخصوصية مع حسن الاعتقاد (ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب) وقد يكون بغير دعاء ولا تعمل من الطرفين (المتوسل والمتوسل به) فمثال الخصوصية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١] لأن ذرية المرء لهم نوع اختصاص به.

ومثال المحبة قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء فقال: من يعمل من غدوة إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود، ثم قال: من يعمل من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط قيراط؟ فعملت النصارى. ثم قال: من يعمل من العصر إلى أن تغيب الشمس على قيراطين قيراطين؟ فأنتم هم. فغضبت اليهود والنصارى وقالوا: مالنا أكثر عملاً وأقل عطاء؟ قال هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء**» أخرجه البخاري وغيره، حيث نلنا ذلك بمحبة الله تعالى لنبينا صلى الله عليه وآله وسلم دون سابقة ولا دعاء ولا تعمل منا.

ومما ينبغي التنبه له أن التوسل إلى الله تعالى يفارق التوسل إلى غيره- أو الواسطة في ثلاث نقاط هامة جداً:

١- عدم الظلم وهضم الحقوق، و هو ظاهر في قوله في الحديث السابق (هل ظلمتكم من حقكم شيئاً؟ قالوا: لا).

٢- له طريق واحد فقط (بمعنى هو استشفاع إلى الله، ويتعالى الله أن يستشفع إلى أحد من مخلوقاته) بخلاف غيره حيث يكون له مطمع من سمعة أو فائدة مادية أو معنوية، كما ورد في الحديث عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أعرابي فقال: **جهدت الأنفس وجاع العيال وأنهكت الأموال وهلكت الأنعام فاستسق الله لنا فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: سبحان الله سبحان الله فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه ثم قال: ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد، شأن الله أعظم من ذلك.**» أخرجه أبو داود، لأنه سبحانه غني عن عباده ولا مطمع له في أحد، وقد يرد عليه ما ورد في البخاري: «**شفعت الملائكة وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين**» وفي رواية «**فيقول الجبار بقيت شفاعتي**» وجوابه كما قال: شيخ مشايخنا إنها شفاعة في حضرة الأسماء الإلهية وليست شفاعة عند سوى الله سبحانه.

٣- ليست الشفاعة عند الله من باب إعلامه بما يجهل- تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً- فهو قد أحاط بكل شيء علماً ولكن من باب إظهار الخصوصية لمن له شأن عنده سبحانه.

أنواع التوسل

وهي خمسة، اتفق أهل القبلة على أربعة منها:

١- الزمان:

مثل يوم عرفة وشهر رمضان وعشر ذي الحجة وساعة الإجابة يوم الجمعة وثلث الليل الأخير... الخ.

٢- المكان:

مثل الكعبة والحجر ومقام سيدنا إبراهيم والملتزم.. والروضة النبوية... والمسجد الأقصى...الخ.

٣- الحال:

مثل الاضطرار، قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]، والمظلوم، قال صلى الله عليه وآله وسلم «**اتقوا دعوة المظلوم**»...الخ.

٤-الأعمال:

مثل حديث أصحاب الغار الذين توسلوا إلى الله تعالى بأعمالهم كما في الصحيحين.

أما المختلف فيه فهو التوسل بالأشخاص:

آ- فالمعتزلة والخوارج قالوا بالمنع مطلقاً، مما جرهم إلى إنكار أحاديث الشفاعة المتواترة وغيرها اعتماداً على عموميات في القرآن والسنة كقوله تعالى:

﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إذا سألت فسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله**».

ب- وابن تيمية رحمه الله ومن والاه قالوا بمشروعيتها في الحياة فقط، ومعظم أصحاب هذا الرأي يحشدون في بحثهم كل العموميات التي يستدل بها أصحاب المذهب الأول ثم يعقبونها بحديث العباس (عندما توسل به عمر رضي الله عنهما) ويستنبطون من ذلك جواز التوسل في حياة المتوسل به ويوم القيامة فقط، بمعنى أنهم يبنون بحثهم على حجج الفريق الأول موجهة بحديث العباس على حسب استنباطهم وفهمهم، وكثيراً ما يقصرون التوسل على طلب الدعاء فقط من الأعلى والأدنى مما يمسخ معنى الوسيلة والشفاعة.

ج: قول أهل السنة والجماعة من عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى يومنا هذا بالجواز مطلقاً وهو ما سنبينه فيما يلي.

مشروعية التوسل

من كتاب الله:

١- قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ...﴾ [المائدة: ٣٥].

ويحق لنا أن نتساءل عن الوسيلة ما هي في هذه الآية، فالذين قالوا: إن المقصود بها هو التوسل بالعمل الصالح جعلوا الآية من قبيل قولنا: اتقوا الله واتقوا الله، وقد أجمع علماء الأصول على أن «التأسيس أولى من التأكيد» (يعني إعطاء معنى جديد أولى بالقبول من حمله على التكرار) ولو رجعنا إلى الأحاديث والآثار لأغنتنا عن هذه التخرصات. فقد أخرج البيهقي في الدلائل وأبو يعلى في قصة إسلام سواد بن قارب قوله في مدحة النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

وأنك أدنى المرسلين وسيلة إلى الله يا ابن الاكرمين الأطايب

مما يدل على أن الأنبياء كلهم وسائل وأدناهم إلى الله نبينا عليه وعليهم الصلاة والسلام. وعجبي من إدراك الأوائل لهذا المعنى وهم حديثو عهد بكفر وجاهلية وغيابه عنا وقد تلونا كتاب الله ودرسنا سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم لسنين عديدة. ويشهد له ما ورد في صحيح مسلم من الدعاء بعد الأذان بالوسيلة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لرجل، وإذا سألنا أنفسنا عن سبب تسمية تلك المنزلة بالوسيلة لكان الجواب أنه ورد في كثير من الآيات والأحاديث وكلام العرب تسمية المحل بالحال (تسمية المكان بمن نزل به) مثل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا

﴿خَٰلِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] يعنى الجنة، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [**الحشر**: ٩] (عن الأنصار وبلدتهم المدينة) وقولهم عن موضح بدر إنه سمي برجل كان ينزله يقال له بدر،بل إن الإخباريين يعزون معظم أسماء البلدان إلى أول من نزل بها .ويؤيد هذا التفسير ما ورد من تسميته صلى الله عليه وآله وسلم بـ«**صاحب الوسيلة**» فهي بإطلاقها مفسرة للآية الكريمة، ويستأنس له بما ورد عند ابن عساكر عن الحسن بن علي رضي الله عنهما مرفوعاً «**فإن وسيلتي عند ربي شفاعتي لكم**».

٢- قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾[الإسراء: ٥٧].

ذكرها الحوفي والزجاج وابن جزي للتدليل على التوسل بالذوات الشريفة بمعنى بأيهم أقرب، وإذا كانت الآية نزلت فيمن عبد من دون الله كالمسيح وعزير ولم يكن ظهوره صلى الله عليه وآله وسلم في عصرهما فالمقصود بمن هو أقرب منهم إلى الله من هو أرفع منزلة وهو سيد الخلق باتفاق، وننوه هنا بأنه ذكر ابتغاءهم الوسيلة قبل ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهما من أفضل الأعمال فهو إن دل على شيء يدل على أن التوسل مزك، بل ومتقدم على كثير من الأعمال الصالحة.

٣- قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] والآية الأخرى ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩].

وهنا ننبه على أن هذه الوسيلة كانت دون دعاء ولا تعمل من الطرفين، ويشهد لها:

آ- الحديث الذي رواه تمام وابن عساكر وابن النجار عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال: رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**كان فيمن قبلكم رجل مسرف على نفسه وكان مسلماً، كان إذا أكل طعامه طرح ثفالة طعامه على مزبلة فكان يأوي إليها عابد فإن وجد كسرة أكلها، وإن وجد بقلة أكلها، وإن وجد عرقاً تعرقه، فلم يزل كذلك حتى قبض الله عز وجل ذلك الملك فأدخله النار بذنوبه فخرج العابد إلى الصحراء مقتصراً على مائها وبقلها ثم إن الله عز وجل قبض ذلك العابد فقال: هل لأحد عندك معروف تكافئه؟ قال: لا يا رب، قال: فمن أين كان معاشك -وهو أعلم بذلك- قال: كنت آوي إلى مزبلة ملك فإن وجدت كسرة أكلتها وإن وجدت بقلة أكلتها وإن وجدت عرقاً تعرقته فقبضته فخرجت إلى البرية مقتصرا على بقلها ومائها، فأمر الله بذلك الملك فأخرج من النار حممة، فقال: يا رب هذا الذي كنت آكل من مزبلته فقال الله عز وجل: خذ بيده فأدخله الجنة من معروف كان منه إليك، أما لو علم به ما أدخلته النار.**»

ب- الحديث الذي رواه ابن ماجه بإسناد ضعيف عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً:

«**يصف الناس يوم القيامة صفوفاً فيمر الرجل من أهل النار على الرجل من أهل الجنة فيقول: يا فلان أما تذكر يوم استسقيت فسقيتك شربه فيشفع له، ويمر الرجل على الرجل فيقول: أما تذكر يوم ناولتك طهورا فيشفع له، ويقول: يا فلان أما تذكر يوم بعثتني في حاجة كذا وكذا فذهبت لك فيشفع له.**»

٤- قال تعالى في حق موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

والوجاهة الممنوحة من الله تعالى لعباده الصالحين لا تختص بزمان دون زمان كما هو معروف والدليل عليها قوله تعالى عن عيسى: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقد ربط إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين بين وجاهته وقبول استغفاره عندما قال لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[مريم: ٤٧].

٥- الآية السالفة الذكر: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ [الطور: ٢١].

٦- ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ...﴾ [البقرة: ٢٤٨] الاستنصار بالتابوت.

❖ **أما الأحاديث النبوية فكثيرة جداً ننبه على بعضها:**

١- الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة وفيه: «**فيقول الله قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأجرتهم مما استجاروا فيقولون: رب فيهم عبد خطاء إنما مر فجلس معهم، فيقول: وله غفرت هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»- من غير دعاء ولا تعمل حتى ولا نية.

٢- «**يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقولون: فيكم من صاحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فيقولون لهم: نعم فيفتح لهم، ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله**

عليه وآله وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم ثم يأتي على الناس زمان فيغزو فئام من الناس فيقال: هل فيكم من صاحب من صاحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم فيفتح لهم» متفق عليه وفي رواية لمسلم ذكر طبقة رابعة، ومثله حديث واثلة رضي الله عنه رفعه: **«لا تزالون بخير مادام فيكم من رآني وصاحبني، والله لا تزالون بخير ما دام فيكم من رأى من رآني وصاحبني.»** الحديث أخرجه ابن أبي شيبة وإسناده حسن بأبي وأمي تلك الرؤية التي سرت إلى ثلاثة قرون أو أكثر.

٣- **«كل سبب ونسب وصهر منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري.»** الحاكم والطبراني والبيهقي عن عمر بإسناد صحيح.

٤- **«كل دعاء محجوب حتى يصلى على محمد وآل محمد.»** الطبراني في الأوسط عن علي موقوفاً، ورجاله ثقات، وشبهه عن عمر وابن مسعود وجابر وفضالة رضي الله عنهم أجمعين، ومعناه ورد في العديد من الأحاديث.

٥- **«إن الرجل لترفع درجته بدعاء ولده له»** أحمد وابن ماجه وحسنه السيوطي- دون طلب من المتوسل.

٦- **«لعلك ترزق به.»** البخاري.

٧- **«وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم.»** البخاري.

٨- حديث الإبدال: «**...بهم ترزقون وبهم تنصرون وبهم يدفع الله البلاء.**» أحمد عن علي، أحمد والبزار والطبراني عن عبادة، الطبراني عن عوف بن مالك، حسنه السيوطي والسخاوي وغيرهما.

٩- أخرج البزار وعبد بن حميد بإسناد ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: «**إن أول ما يجازى به المؤمن بعد موته أن يغفر لجميع من تبع جنازته.**» ومثله عن جابر وأبي عاصم الخبطي عند ابن أبي الدنيا،وعن أنس عند الحكيم الترمذي.

١٠- في الأحاديث المسلسلة «**من شابكني أو شابك من شابكني دخل الجنة.**»

❖ من الآثار:

١- قول عمر للحسين بن علي رضي الله عنهم: «**أنت أحق بالإذن من عبد الله بن عمر، إنما أنبت في رؤوسنا ما ترى، الله ثم أنتم- ووضع يده على رأسه.**» (ابن سعد وابن راهويه والخطيب)

٢- قصة الصحابي سفينة رضي الله عنه، حيث اعترضه أسد ثم دله على الطريق، وفيها: «**يا أبا الحارث (يخاطب الأسد) أنا سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.**» (الإدلاء إليه بسبب) أخرجه الحاكم والبيهقي والبزار والطبراني ورجالهما وثقوا.

٣- رؤيا العباس كما أخرج البخاري في كتاب النكاح من صحيحه عن عروة قال: «**لما مات أبو لهب أريه بعض أهله بشر حيبة، قال له: ماذا لقيت؟ قال أبو لهب: لم ألق بعدكم...، غير أني سقيت في هذه بعتاقتي ثويبة.**»

٤- وهذه القصة التي تبين مع سابقاتها أن التوسل أعم من الدعاء: أخرج الزوزني عن علي رضي الله عنه قال: «**لما خطبت بنت أبي جهل بن هشام وجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم موجدة فرأيت في وجهه فخرجت إلى أبي بكر فأخذت بيده**

فأدخلته على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلما رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر مقبلاً تهلل وجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم... الحديث.» ولك أن تتأمل في الفرق بين تغير وجهه صلى الله عليه وآله وسلم وبين تهلله، وكم هي الفوائد العائدة على الناظر.

عموم نفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم

إن ما تقدم من الآيات والأحاديث والآثار لا يدع مجالاً للشك في مشروعية التوسل وأنه أعم من الدعاء وقد يكون بغير طلب ولا تعمل، وهنا نزيد المسألة إيضاحاً ببيان عموميات نفعه صلى الله عليه وآله وسلم مما يزيدنا معرفة بسعة دائرة وسيلته وشمولها للخلق، كما يظهر من خصوصياته العامة وهي:

١- **الرحمة:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] و﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ﴾ [التوبة: ٦١] وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنما أنا رحمة مهداة**» (الحاكم بإسناد صحيح عن أبي هريرة)

٢- **عموم الحمد:** «**ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد**» فهو صلى الله عليه وآله وسلم أحمد الحامدين وأحمد المحمودين.

٣- **عموم الرسالة:** ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾[سبأ: ٢٨] و﴿لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] وفي صحيح مسلم: «**وأرسلت إلى الخلق كافة**».

٤- **رفع العذاب:** ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ [الأنفال: ٣٣] وهو من معاني قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما عند الطبراني والبيهقي، وفي صحيح مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنه لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون.**» ومن أعجب ما ورد فيه حديث «ذي قار» كما

أخرجه الطبراني عن خالد بن سعيد بن العاص رضي الله عنه... وفيه قال شيخهم: ما اسم الرجل الذي دعاكم إلى الله؟ قالوا: محمد، قالوا: هو شعاركم فنصروا على القوم، فقال رسول الله صلى الله عليه وأله وسلم: «بي نصروا» قال الهيثمي: رجاله ثقات رجال الصحيح غير خلاد بن عيسى وهو ثقة - حيث إن ذكر اسمه الشريف فقط من قبل أناس كافرين كان فيه النصر لهم على عدوهم، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [البقرة: ٨٩] وما ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيرها- كما سيأتي.

لطيفة: قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [الحجرات: ٧] فكل من تحقق بهذه الآية وامتلأ قلبه من محبته صلى الله عليه وآله وسلم حتى خالط لحمه ودمه رفع عنه العذاب في الدنيا والآخرة.

٥- الهداية: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] وفي حديث الأنصار يوم حنين قوله صلى الله عليه وآله وسلم- كما ورد في مسند الإمام أحمد من راوية أبي سعيد رضي الله عنه: «**ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله وعالة فأغناكم الله وأعداء فألف الله بين قلوبكم**» وعرف الأنصار رضي الله عنهم تعريضه اللطيف صلى الله عليه وآله وسلم فقالوا: بل الله ورسوله أمن وأفضل. ووردت لفظة «بي» صريحة في الصحيحين بعد كل عبارة، فالله أعلم أي ذلك كان.

٦- الاستغفار: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤] ولنا عودة إلى هذه الآية لأن لب الموضوع يدور حولها.

- ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] و﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ [النور: ٦٢].

- ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦] بعد قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ ورَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [المنافقون: ٥].

٧- **التزكية:** وهي بحد ذاتها تستحق مؤلفاً مستقلاً للكلام عليها.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤] (ومثلها دعاء إبراهيم وإسماعيل- البقرة ١٢٩- وأيضاً- البقرة ١٥١- والجمعة ٢).

وقال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

٨- **شفاعة الموقف العامة:** (وهي خاصة به صلى الله عليه وآله وسلم كما في الأحاديث المتواترة) وعموم الشفاعات (بمعنى كونه صلى الله عليه وآله وسلم ضالعاً في كل أنواع الشفاعات (وهي ست أو أكثر) مع الاختلاف في كون بعضها خاصاً به أم لا.

٩- **الشهادة على الأنبياء وأممهم:** ﴿وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾[الحج: ٧٨] و﴿لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] و﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ

﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] (يعني الشهداء على وجه) ومثله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ﴾ [النحل: ٨٩] (يعني الشهداء) وقريب منه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ...﴾ [آل عمران: ٨١] وقال عن كتابه: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِۖ﴾[المائدة: ٤٨].

١٠- قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ﴾ [يونس: ٢] (هو النبي صلى الله عليه وآله وسلم) كما ذكر البخاري عن زيد بن أسلم وابن مردويه عن علي وأبي سعيد رضي الله عنهما والطبري عن قتادة والحسن رحمهما الله تعالى، ويشهد له قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أنا فرطكم على الحوض**» متفق عليه.

١١- **مفاتيح الدنيا والقسم**: روى الشيخان عن معاوية رضي الله عنه مرفوعاً: «**وإنما أنا قاسم والله يعطي**» ونهى عن التكني بأبي القاسم، وقوله فيما رواه أحمد والضياء عن جابر بإسناد صحيح مرفوعاً «**أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق**» مع قول أبي هريرة رضي الله عنه: «**فقد ذهب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنتم ترغثونها أو تلغثوها أو تنتثلونها**»، وروى الطبراني عن جابر رضي الله عنه **قال**: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**أتتهموني وأنا أمين أهل السماء وأهل الأرض**» وفي البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «**ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء.**»

١٢- **عموم الجمع:** كما قال الشاعر:

وليس على الله بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد

حيث وزن صلى الله عليه وآله وسلم بالأمة فرجح بهم (أحمد والطبراني عن ابن عمر ورجاله ثقات).

١٣- **النور:** قال الله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]، وفي تفسير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥] قال كعب الأحبار وابن جبير المراد بالنور الثاني هنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ونحوه قول سهل بن عبد الله التستري، ويستأنس له بما ورد في (الدلائل) للبيهقي عن ابن عمر عن كعب الخير «**أنه سمع رجلاً يحدث عن رؤيا رآها في منامه، قال الرجل: رأيت الناس جمعوا للحساب ثم دعيت الأنبياء مع كل نبي من آمن من أمته، ولكل نبي نوران يمشي بهما، ولمن اتبعه من أمته نور واحد يمشي به، حتى دعي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وإذ لكل شعر من رأسه ووجهه نور على حدة يتبينه من نظر إليه، ولكل من اتبعه من أمته مؤمن نوران كنور الأنبياء، فأنشده كعب: بالله الذي لا إله إلا هو لرأيتها في منامك؟ فقال الرجل نعم والله لقد رأيتها، فقال كعب: والذي بعث محمداً بالحق إن هذه لصفة الأنبياء والأمم لكأنما قرأها من التوراة.**» ويوم القيامة هو لإظهار ما خفي على بعضهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

وغيرها كثير وكلما ازداد الإنسان تدبراً في آيات الكتاب ازداد معرفة بقدره صلى الله عليه وآله وسلم، ولعل نابغاً أن يقول: إذا كان نفعه عاماً فلم التوسل به؟

والجواب: كلما اختصت النسبة زاد القرب والنفع كما هو بديهي ويفهم ذلك من تعريفه صلى الله عليه وآله وسلم بأقرب الناس منه يوم القيامة «**إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً.**» (الترمذي عن جابر).

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة.**» (الترمذي عن ابن مسعود).

أدرك الصحب الكرام رضي الله عنهم ذلك بأجلى معانيه،وكيف لا وقد أشرقت عليهم أنوار النبوة فصاروا يبادرون ويتنافسون في التبرك[1] بكل ما ينتمي إليه صلى الله عليه وآله وسلم محبة وشوقا حتى تبركوا بدمه وبوله، وقد دلهم كتاب الله على ذلك بذكر أعضائه الشريفة حيث قال تعالى:

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[البقرة: ١٤٤]، ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾[الحجر: ٨٨]، ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [مريم: ٩٧]، ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ [الشرح: ٣]، ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٤]، ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ [الإسراء: ٢٩]، ولعل منها: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ٦١] وامتدح بعض قواه فقال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ [النجم: ١١]، ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٧] مع الثناء على أخلاقه جملة: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]. بل إن ماوقع في المعراج، حيث جاز صلى الله عليه وآله وسلم بجسده الشريف عالم الخلق إلى عالم الأمر (وهو مالا يمكن للعقل أن يدركه)

---

(١) وهو نوع من أنواع التوسل كما تدل عليه قصة خلد بن الوليد والشعرات النبوية في قلنسوته حيث امتنع عن ابتداء القتال قبل أن يجدها.

جعل القاضي عياض وغيره ينقل الإجماع على أن البقعة التي ضمت أعضاءه صلى الله عليه وآله وسلم هي الأشرف والأفضل على الإطلاق.

وهذا يؤدي بنا إلى الكلام عن التوسل بقبره الشريف كما ورد في قصة عام الفتق التي رواها الدارمي بإسناد جيد عن أبي الجوزاء قال: «**قحط أهل المدينة قحطاً شديداً فشكوا إلى عائشة فقالت: انظروا قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فاجعلوا منه كواً إلى السماء حتى لا يكون بينه وبين السماء سقف، قال: ففعلوا فمطرنا مطراً حتى نبت العشب وسمنت الإبل حتى تفتقت من الشحم فسمي عام الفتق.**»

وقصة أبي أيوب رضي الله عنه التي رواها أحمد في مسنده والطبراني في [الكبير] و [الأوسط] عن داود بن أبي صالح قال: «**أقبل مروان يوما فوجد رجلاً واضعاً وجهه على القبر فقال: أتدري ما يصنع؟ فأقبل عليه فإذا هو أبو أيوب، فقال: نعم جئت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (وفيه تأكيد لمعنى جاءوك في آية «ولو أنهم إذ ظلموا...» الآية) ولم أت الحجر... الحديث**» وفيه كثير بن زيد وثقه أحمد وغيره وضعفه النسائي وغيره.

وقصة اسامة بن زيد رضي الله عنه التي رواها ابن حبان بإسناد حسن عن عبيد الله بن عبد الله قال: «**رأيت أسامة بن زيد يصلي**[1] **عند قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فخرج مروان بن الحكم فقال: تصلي إلى قبره؟ فقال: إني أحبه، فقال له قولاً قبيحاً، ثم أدبر، فانصرف أسامة، فقال: يا مروان إنك آذيتني، وإني سمعت**

---

(١) -ورد في رواية الطبراني بلفظ: ((رأيت أسامة بن زيد عند حجرة عائشة يدعو...)) وقال الهيثمي رجاله ثقات.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «إن الله يبغض الفاحش المتفحش» وإنك فاحش متفحش.»

وقصة دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم التي رواها محمد بن حاتم في فضائل الصديق عن عمر مولى غفرة عندما اختلفوا في دفن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه قال أبو بكر رضي الله عنه: إنا نكره إن خرج قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى البقيع فيعوذ به عائذ من الناس لله عليه حق، وحق الله فوق حق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فإن أخذنا به ضيعنا حق الله وإن أخفرناه أخفرنا قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم... وذكر القصة.

ومنها التمسح بالمنبر كما فعل ابن عمر رضي الله عنهما (ابن سعد)، ونقل عن الإمام أحمد رحمه الله أنه لم ير بأساً بتقبيل المنبر والقبر الشريف، وكل ذلك عال وعظيم، وجليل وكريم، ولكن أعلاه وأعظمه وأجله وأكرمه هو روحه الشريفة وذاته الشريفة صلى الله عليه وآله وسلم ولا فناء للأرواح ولا تبدل للذوات والله أكرم من أن يحرم أمته صلى الله عليه وآله وسلم فيوضات روحه وذاته بعد أن أصابهم الخطب العظيم بفراقه صلى الله عليه وآله وسلم ووصفها بأنها أعظم المصائب (الطبراني وابن سعد وغيرهما عن سابط الجمحي) وأعظم منها- لو وجد- فقد تلك الفيوضات، والدليل عليه بكاء الصحابة على انقطاع الوحي بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم كما روي عن أم أيمن وأبي بكر وغيرهما.

مفهوم الحبيب

ونزيد ذلك إيضاحاً عندما نعرف معنى كونه صلى الله عليه وآله وسلم حبيب الله، فقد عرفنا من أحبة الأرض أن أحدهم لا يحوج حبيبه إلى السؤال، وبعد انتقاله يسارع في إجابة كل من استشفع أو توسل به، والله أعلى وأجل، فقد قال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥] وقال: ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا﴾ [البقرة: ١٤٤] وقال في الحديث الذي رواه مسلم: «**إنا سنرضيك في أمتك**» وورد عند البزار والطبراني من حديث علي رضي الله عه بسند حسن: أن الله تعالى -بعظمته وعلوه وغناه- يسأله يوم القيامة بعد قبول شفاعاته كلها: «قد رضيت؟» فيقول صلى الله عليه وآله وسلم: «أي رب قد رضيت». وقد أدركت عائشة رضي الله عنها هذا المعنى وفهمته حق الفهم عندما قالت له صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما أرى ربك إلا يسارع لك في هواك.**» (متفق عليه) وهو بحق معنى كونه حبيباً صلى الله عليه وآله وسلم، وهذه الحقيقة لا تتبدل بانتقاله إلى الملأ الأعلى، وممن ضرب على هذا الوتر العباس رضي الله عنه- كما أخرج ابن سعد عن الشعبي والحسن: «**أن العباس تحفى عمر في بعض الأمر فقال له: يا أمير المؤمنين أرأيت لو جاءك عم موسى عليه السلام مسلما ما كنت صانعا به؟ قال: كنت - والله - محسناً إليه، قال: فأنا عم محمد النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: وما رأيك يا أبا الفضل فوالله لأبوك أحب إلي من أبي، قال: آلله؟ قال: آلله لأني كنت أعلم أنه أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أبي فإني أوثر حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على حبي.**» وقد قال عباس بن مرداس السلمي رضي الله عنه من قصيدة ألقاها بني يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مادحاً له:

إن الإله بنى عليك محبة في خلقه ومحمداً سماكا

❖ **كلام العلماء:**

ولنفزع إلى كلام العلماء الذين فهموا كتاب الله حق الفهم ودرسوا سنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم حق الدراسة، وفي البداية نذكر من استشهد بهذه الآية الكريمة (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم مما يدل على عمومها والحق يقال: إن الأصل في ألفاظ الكتاب والسنة العموم، والمخصص هو الذي يحتاج إلى دليل، ولكن نسوق أدلتنا على عموم الآية تنزلاً فيما يلي:

آ- الصحب الكرام:

- علي بن أبي طالب كما ذكر القرطبي في تفسيره في قصة الأعرابي.

- عبد الله بن مسعود كما أخرج عنه الطبري في تفسيره: إن في سورة النساء لخمس آيات ما يسرني أن لي بها الدنيا وما فيها:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء:٤٠] ﴿إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا﴾ [النساء: ٣١] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ١١١] وخامستهن ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [النساء: ٦٤] ولا مرية في كون الآيات الأربع الأولى عامة وكذلك ظاهر

الآية الخامسة وإلا لما كان لذكر ابن مسعود رضي الله عنه لها بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم بسنين مبرر، وكما أن باب المغفرة والفضل وتكفير الصغائر ومغفرة ما دون الشرك ومضاعفة الحسنات عام في كل الأزمان فكذا قبول استغفار النبي صلى الله عليه وآله وسلم لمن جاءه تائباً ويزيد هذا الكلام أهمية كونه صادراً عن ابن مسعود رضي الله عنه الذي قرأ صدر هذه السورة بين يدي النبي صلى اله عليه وآله وسلم، فلفهمه فيها زيادة أهمية.

ب- الأئمة المجتهدون:

-الإمام مالك كما روى عنه القاضي عياض وغيره[1] عندما ناظر أبا جعفر في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم... وقال في آخر كلامه «**ولم تصرف وجهك عنه وهو وسيلتك ووسيلة أبيك آدم؟ قال الله تعالى** ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ...﴾ [النساء: ٦٤] **الآية ١ هـــ** ».

_ وذكر صاحب [شواهد الحق] أنه يروى مثل هذا عن ابن عيينة أيضاً.

ج- قصة العتبي:

وهي قوله: كنت جالساً عند قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ...﴾ [النساء: ٦٤] الآية وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

---

(١)- ووصف الزرقاني من ضعف الاسناد بقوله: وهذا تهور عجيب فإن الحكاية رواها أبو الحسن علي بن فهر في كتابه (فضائل مالك) بإسناد لا بأس به، وأخرجها القاضي عياض عن شيوخ عدة من ثقات مشايخه فمن أين أنها كذب وليس في اسنادها وضاع ولا كذاب.

يا خير من دفنت في القاع أعظمه | فطاب من طيبهن القاع والاكم
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه | فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم أنصرف الأعرابي فغلبتني عيني فرأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: «إلحق بالأعرابي فبشره أن الله قد غفر له».

وليس المقصود من إيراد هذه القصة هنا الاحتجاج بالرؤيا- وإن كنا نراه- لأن المخالف لا يقرنا على ذلك، بل المقصود الإبانة بأن كل من ذكر هذه القصة وفيها الآية الكريمة في سياق شرحه لها إن كان مفسراً لكتاب الله، أو في معرض ذكر زيارته صلى الله عليه وآله وسلم إن كان فقيهاً، كل واحد منهم يعتقد أن معناها عام في حياته وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم وإلا لما لبس علينا بذكرها.

فمن المفسرين: ابن كثير والثعالبي وأبو حيان[1]، وذكرنا عن القرطبي آنفاً قصة شبيهة بها رويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن المحدثين:

١- ابن عساكر وابن النجار.

ومن الفقهاء:

١- الشافعية: النووي وابن حجر الهيتمي في [الإيضاح] وحاشيته.

٢- المالكية: العلامة خليل في [المنسك] وابن الحاج في [المدخل] والباجي في كتبه.

---

١ - وله أهمية خاصة لكونه لغوياً شهيراً يعلم مقتضيات الألفاظ وجواز إطلاقها بعد الانتقال، وقد مر معنا مايؤيده من حديث أبي أيوب رضي الله عنه.

٣- الحنابلة: **الجيلاني** في [الغنية] وابنا قدامة في [المغني] و [الشرح الكبير] والبهوتي في [كشاف القناع].

٤- الحنفية: الموصلي في [الاختيار] والشرنبلالي في [مراقي القلاح].

أما من لم يذكر هذه القصة من المفسرين والعلماء فهو في حيز الاحتمال بين من يرى عموم الآية ولكن لم يذكر القصة، أو من لا يرى عمومها، ومما يرجح الاحتمال الأول عدم الرد أو الانتقاد من واحد من هؤلاء على من ذكر القصة مما يدل على الإقرار ضمناً.

د- وممن نقل عنه جواز التوسل من الأئمة المجتهدين:

- الإمام الشافعي: حيث يقول:

آل النبي ذريعتي وهم إليه وسيلتي

أرجو بهم أعطى غداً بيدي اليمين صحيفتي

وقد توسل بأبي حنيفة رحمهما الله عندما زار قبره كما روى ابن حجر الهيتمي وغيره.

- الإمام أحمد بن حنبل: كما روى عنه المروذي في منسكه (وهو من أصحابه).

هـ ــ ومن غيرهم:

- معروف الكرخي الذي يقول عنه الإمام أحمد (وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف) فنراه يقول لتلميذه السري السقطي كما ذكر صاحب [الرسالة]: «إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بي».

- ابن أبي فديك (وهو من الثقات) كما أخرج البيهقي وغيره.

- ابن الجوزي في كتاب [مثير الغرام الساكن] وكتاب [الوفا بأحوال المصطفى].

- الكمال بن الهمام من فقهاء الحنفية في [فتح القدير].

- ابن الجزري والشوكاني في [الحصن الحصين] وشرحه، ونقل الشوكاني الإجماع عليه في كتابه [الدر النضيد]. (ولرأي ابن الجوزي والشوكاني أهمية خاصة لكونهما من السلفية مما يدل على أن التوسل دأب هذه الأمة صوفيها وسلفيها).

و- وممن توسل به شعراً:

١- **من العلماء:** ابن حجر العسقلاني وابن دقيق العيد والبارزي والبهوتي الحنبلي.

٢- **من الوزراء والوجهاء:** لسان الدين ابن الخطيب وابن خلدون.

٣- **من الشعراء:** ابن الوردي وابن نباتة وصفي الدين الحلي (إضافة لشعراء مدائحه صلى الله عليه وآله وسلم).

ز- تجويز ابن تيمية للتوسل:

بل إن الإمام ابن تيمية- رحمه الله- نفسه يجيز التوسل حيث يقول في كتابه [التوسل والوسيلة]: «**إذا قال القائل أسألك بحق فلان أو بجاهه أو أسألك بإيماني به، وهذا من أعظم الوسائل، قيل: من قصد هذا المعنى فهو معنى صحيح، لكن ليس هذا**

مقصود عامة هؤلاء.» اهـــ، فإذا اتفقنا على اللفظ فلا يجوز التنقير عن النيات لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «**هلا شققت عن قلبه**» فكيف بالتكفير بالتخرص.

ح- ونختم هذا الفصل بكلام ابن القيم رحمه الله حيث يقول في كتاب [طريق الهجرتين] في حق الأنبياء والمرسلين: «**ويكفي في فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه اختصهم لوحيه وجعلهم أمناء على رسالته، وواسطة بينه وبين عباده وخصهم بأنواع كراماته فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً على سائرهم درجات ولم يجعل لعباده وصولاً إلا من طريقهم ولا دخولاً إلى جنته إلا خلفهم، ولم يكرم أحداً بكرامة إلا على أيديهم، فهم أقرب الخلق إليه وسيلة وأرفعهم عنده درجة وأحبهم إليه وأكرمهم عليه، وبالجملة فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم وبهم عرف الله وبهم عبد وأطيع وبهم حصلت محابه تعالى في الأرض وأعلاهم منزلة أولو العزم منهم... وعليهم تدور الشفاعة حتى يردوها إلى خاتمهم وأفضلهم**» اهـــ.

الإيرادات والشبهات والجواب عنها

أ- حديث العباس رضي الله عنه:

وهو ما رواه البخاري وغيره عن أنس رضي الله «عنه **أن عمر بن الخطاب كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا وإنا نتوسل إليك اليوم بعم نبينا فاسقنا فيسقون.**» حيث استنبط منه أن سبب تغير التوسل هو الحياة والموت. ونجمل نقاط الرد فيما يلي:

آ- لا يدل على عدم التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم، بل هو مجرد استنباط ولا يوجد لفظ صريح.

ب- بل هو بنفسه دال على التوسل بالنبي صلى اله عليه وآله وسلم، قوله: «**كنا نتوسل**» علماً بأن عام الرمادة كان بعد فتح مصر يعني بعد سنة ١٨ه، فهل يعقل أنهم لم يستسقوا أبداً في السنوات السبع السابقة عليه، فإذا كانوا يستسقون فقد قال: «**كنا نتوسل إليك بنبيك**» صلى الله عليه وآله وسلم، والواقع إن ابن الحاج في مدخله استنبط من هذا الحديث مشروعية التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو واضح بجلاء تام للمنصف. ومما يستأنس به ما رواه اللالكائي في [شرح أصول اعتقاد أهل السنة]: «**وإنا نستسقيك بالعباس لمكانه من نبيك**». وشبهه ما رواه أحمد في [فضائل الصحابة] برقم ١٨٠٢، وذكره الآجري في [الشريعة]: «**أن كعب الحبر أخذ بيد العباس فقال: أختبئها لشفاعتي عندك. قال العباس: وهل لي شفاعة؟ قال: نعم، ليس أحد من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا كانت له شفاعة**».

- أجمع أهل القبلة على وجود من هو أفضل من العباس في ذلك الموقف (عمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين) فتوسله بالعباس دال على أنه يريد أن يدلي بواسطة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم بدليل قوله «**بعم نبيك**» ولم يذكره بالاسم.

- ذكر القسطلاني في شرحه على البخاري عن كعب الأحبار: «**كانوا إذا قحطوا استشفعوا بأهل بيت نبيهم**» وهو توسل صريح بنبيهم.

ج- أسباب عدم التوسل- إن صح تنزلاً-:

قبل عرض الأسباب يستحسن أن ننوه بأن مسألة التوسل مسألة وجدانية مرتبطة بالمحبة واستشعار القرب فليس لها موازين محددة ثابتة مثل أركان الصلوات وحدود الفقه المعهودة، فعدم التوسل لا يحتاج إلى تبرير ولا تعليل كما أن التوسل لا يحتاج إلى تبرير، وما من متوسل ولا قائل بمشروعية التوسل إلا وتراه يدعو الله تعالى مباشرة أحياناً ويتوسل بنبيه صلى الله عليه وآله وسلم أحياناً أو بغيره من الصالحين حسب حاله ووجدانه في ذلك الطلب، ولو سألته التبرير لأعياه الجواب أحياناً، وبناء عليه يحتمل أن يكون أحد هذه الأسباب التي ستذكر هو المانع من التوسل مباشرة- إن صح- أو أكثر من واحد منها أو شيء آخر مخالف لها جميعاً نظره عمر رضي الله عنه بنظره الثاقب وحاله في ذلك الموقف وغاب عنا، علماً بأننا نعتقد اعتقاداً جازماً أنه توسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم عن طريق عمه رضي الله عنه، وسترى من هذا العرض أن قضية التفريق بين الحياة والموت أوهن من بيت العنكبوت:

- **فأهل المحبة والنظر العالي قالوا:** إن عمر رضي الله عنه صاحب تجربة سابقة مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم حيث عطشوا في طريقهم إلى تبوك (كما رواه مسلم وغيره) وأرادوا أن ينحروا إبلهم وسكت النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فطلب منه عمر ما عودهم به من الدعاء بالغيث وكيف كانت أنوار الوجه الشريف بمجرد النظر إلى السماء تبكي السماء شوقاً فينزل المطر وتضحك الأرض فرحاً فينبت العشب ويأتي الغيث من كل صوب، كما قال أبو طالب:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

(أخرجه البخاري)

وهذا كان معروفاً لدى الجميع حتى المشركين مثل أبي سفيان قبل إسلامه (أخرجه البخاري)، ذكر عمر رضي الله عنه كل ذلك وذكر فقدهم لذلك الوجه الشريف في ذاك الموقف فسعى إليه عن طريق قرابته وأهل بيته صلى الله عليه وآله وسلم.

- **وأهل هضم النفوس قالوا:** إن حال عمر يشبه النفس اللوامة، فأظهر تواضعه في ذلك الموقف وأن ليس أهلاً للتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم مباشرة فتوسل به عن طريق عمه رضي الله عنه تواضعاً منه، ذكره ابن حجر في [الفتح].

- إظهار رفعة شأن القرابة وآل البيت أمام الملأ، وهذا كان دأبه رضي الله عنه في كثير من وقائعه كما تشير إليه قصة الحسين رضي الله عنه الآنفة الذكر (ص٢٢).

- ورد الحديث في مستخرج الإسماعيلي بلفظ «**كنا نستسقي...**» وواضح لكل ذي عقل أن أركان صلاة الاستسقاء لا يمكن أن تتم بغائب عنهم ظاهراً في ذلك الموقف، وإليه يشير قوله رضي الله عنه في رواية البخاري «**كنا نتوسل...فتسقينا**».

- وقريب منه ما سمعته من بعض علماء العصر بأنه أراد أن يباشر لهم دعاء الاستسقاء رجل عطشان حاله يشبه حالهم تأكيداً لمعنى الاضطرار، وفي هذا فرق ظاهر واضح جلي بين حال الحياة وحال البرزخ.

- **التنويع:** ويدل عليه قوله: «**كنا نتوسل بنبيك صلى الله عليه وآله وسلم...**» ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بحق نبيك والأنبياء**» وقوله: «**بحق السائلين عليك**» ومنه طلب الدعاء من أويس رضي الله عنه كما في صحيح مسلم، ومنه قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعمر «**لا تنسنا من دعائك يا أخي**» كما أخرجه أبو داود والترمذي.

- **الاختيار:** أجمع العلماء على جواز الاستسقاء دون توسل مطلقاً، فإذا جاز دون توسل فمن باب أولى جوازه بالأدنى.

-**خشية ظن التجاوز:** لو توسل مباشرة بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم يخشى أن يفهم منه تجاوز العباس عم النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفيه من سوء الأدب ما فيه، ويدل عليه قوله رضي الله عنه كما في رواية الحاكم: «**إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يرى للعباس ما يرى للوالد فاقتدوا بنبيكم واتخذوه وسيلة إلى الله.**» وهل يعقل أن يفتات الرجل على أبيه في هذا الموقف،

وفي كل المواقف العصيبة ترى العقلاء والحكماء يفزعون إلى كبارهم كما حصل لقريش عندما أخذوا بمشورة أبي أمية المخزومي في تحكيم أول داخل عليهم في قضية رفع الحجر الأسود عند بنيانهم الكعبة.

- خشية تأخر المطر مما قد يورث الشك في مقامه صلى الله عليه وآله وسلم عند ضعاف الإيمان، أو يعطي المجال للإرجاف من قبل المنافقين (انظر البند رقم ٦- عدم الاستجابة- فيما يأتي).

- **فارق التجلي**: وهو يعتمد على ما كان عليه حاله رضي الله عنه في ذلك الموقف، ويمكن الإيماء إليه بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُواْ لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [المائدة: ١٠٩] وسيأتي له إيضاح في الفقرة (ز).

وكما ترى فالاحتمالات كثيرة ولا يجوز أن نستنبط حكماً شرعياً ونكفر المسلمين مع وجود هذه الاحتمالات.

د- لو فرضنا أن من رأي عمر رضي اله عنه عدم التوسل بالأموات- وحاشاه من ذلك فقد أقر المزني على توسله- فهو قول صحابي معارض بقول وفعل صحابي آخر (بلال بن الحارث المزني) بل معارض بحديث صحيح (حديث الأعمى) فأيهما أولى بالقبول؟

هـ حتى لو فرضنا أنه قول سالم من المعارضة مطلقاً، فقول الصحابي ليس ملزماً عند الإمام الشافعي وغيره من علماء الأصول رحمهم الله تعالى، أما الاستنباط من قول الصحابي فليس ملزماً عند كافة العلماء.

و- **تفنيد نظرية الفرق بين الأحياء والأموات:**

١- **عالم الأرواح:** الإنسان بعد انتقاله روح بلا جسد، والجسد أشبه ما يكون بالثوب الذي تلبسه وتخلعه، وعلى الروح التعويل، والأرواح يمكنها الدعاء، فالملائكة أرواح بلا شك وقال الله عنهم: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [غافر: ٧] ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ [الأحزاب: ٤٣] وشهادة الملائكة على المصلين في الفجر والعصر كما روى البخاري...الخ والموت بحد ذاته يوجب الترقي لا التدني فهو تخلص من قيد الجسم، وحتى الكافر يكشف عن بصره وتزداد قواه فيرى الملائكة ويرى مقعده في الجنة والنار (أخرجه البخاري)، حتى العبد في حياته تكون له قدرات أكثر عندما تفارق روحه جسده- كما يحدث عند النوم، بل إن التوسل عند العلماء المحققين لا يكون إلا بمن مات عن أوصاف بشريته.

٢- **حديث الأعمى:** في صلاة الحاجة (كما سيأتي) واستعمله الصحابة بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، مع ملاحظة نقطة هامة جداً، وهو أنه لم يذكر في الرواية أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم دعا له، بل علمه كيف يتوسل به صلى الله عليه وآله وسلم، هذا مع اتفاق العلماء على مشروعية صلاة الحاجة - كما هو مسطور في كتب الفقه.

٣- عند من يظن بأن الموت هو عجز تام وانقطاع كلي، نذكره بأن التوسل قد يكون بغير دعاء ولا تعمل -كما مر آنفاً -ونذكره مجدداً بقصة حليمة رضي الله عنها وكيف در ثديها وشبع ابنها وحلبت شارفها ونام أهلها تلك الليلة ببركته صلى

الله عليه وآله وسلم وهو ابن ليال معدودات، كما نذكره بقصة أبي طالب- وكان فقيراً- فكان إذا وضع الطعام وابتدأ النبي صلى الله عليه وآله وسلم به كفاهم وزاد، وإذا ابتدأ غيره قاموا جياعاً، والقصص في هذا كثيرة وكلها داخل في معنى التوسل (جلب نفع غير مستحق أو دفع ضر قد وجب).

٤- **هل ينفع الأموات؟!:** (بالمعنى المجازي لأن حقيقة النفع لله تعالى من اسمه النافع لا للأحياء ولا للأموات)- والنفع أعم من الدعاء، وهاك الأدلة:

- شفاعة سيدنا موسى بتخفيف الصلوات من خمسين إلى خمس (عدداً لا ثواباً) ليلة المعراج كما تواتر.

- وصية سيدنا إبراهيم لهذه الأمة بالإكثار من غراس الجنة وتعريفهم بأن غراسها «**سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر**» كما في الصحيحين.

- وصية ثابت بن قيس بن شماس كما أخرج الحاكم والطبراني من طريق ابنة ثابت بن قيس: وفيها قصة شهادته رضي الله عنه يوم اليمامة فرآه رجل من المسلمين في منامه فقال له: أوصيك وصية، إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه، إني لما قتلت مر بي رجل من المسلمين فأخذ درعي ومنزله في أقصى الناس وعند خبائه فرس يستن في طوله وقد كفأ على درعي برمة وجعل فوق البرمة رحلاً فأت خالد بن الوليد فمره أن يبعث إلى درعي فيأخذه وإذا قدمت على خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقل له: إن علي من الدين كذا وكذا، ولي من الدين كذا وكذا، وفلان من رقيقي عتيق... وذكر الحديث إلى أن قال: فلما قدموا المدينة حدث الرجل أبا بكر بالرؤيا فأجاز وصيته ولا نعلم

أحداً أجيزت وصيته بعد الموت إلا ثابت. وهذا إن دل على شيء فهو يدل على وصول النفع المادي المعين المحدود فما بالك بالمعنوي العام.

- ومنها ما تقدم من غفران ذنوب من تبع جنازة مسلم (أخرجه البزار وعبد بن حميد).

- ومنها ما ورد في البخاري عن أنس في قصة بئر معونة، وفيها «...**قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن أصحابكم قد أصيبوا وإنهم قد سألوا ربهم فقالوا: ربنا أخبر عنا إخواننا بما رضينا عنك ورضيت عنا فأخبرهم عنهم**».

- وما رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**ضرب بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر فإذا فيه إنسان يقرأ سورة (تبارك الذي بيده الملك) حتى ختمها فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأخبره فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: هي المانعة هي المنجية تنجيه من عذاب الله**» وغيرها كثيرة.

٥- **هل يسمع الأموات؟**: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في حق قتلى بدر من المشركين كما ورد في البخاري: «**ما أنتم بأسمع منهم**» وورد في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه: «**أن الميت يسمع خفق نعالهم**» وعليه بوب البخاري باب الميت يسمع خفق النعال، بل إن مشروعية السلام في زيارة القبور وما فيها من الخطاب دال على سماعهم، ويدل عليه أيضاً ما ورد في حق شهداء أحد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند الحاكم، وفيه: «...**فأتوهم فزوروهم، والذي نفسي بيده لا يسلم عليهم أحد إلى يوم القيامة إلا ردوا عليه.**»

وهنا يعترض معترض بأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسۡمِعٖ مَّن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢] وهذا حق لأن المسمع لهم هو الله سبحانه وحده، ولعل صاحب الفطنة والفهم يعلم من سياق هذه الآية أن المقصود بالموتى وأهل القبور هم الكفار سواء كانوا أحياء أو أمواتاً كما يدل عليه سياق الآية صراحة، وقد جاء في الآية الأخرى: ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖ﴾ [النحل: ٢١] وفي غيرها: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا...﴾ [الأنعام: ١٢٢]

٦- **عرض الأعمال:** أخرج البزار عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**حياتي خير لك تحدثون ويحدث الله لكم، فإذا مت كانت وفاتي خيراً لكم تعرض علي أعمالكم فإن رأيت خيراً حمدت الله تعالى وإن رأيت شراً استغفرت لكم.**» وصححه العراقي والهيثمي والسيوطي والقسطلاني وإسماعيل القاضي، وأخرج ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه- بإسناد حسنه السيوطي- عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إن أحداً لن يصلي علي إلا عرضت علي صلاته حتى يفرغ منها.**» وأخرج عبد الرزاق عن مجاهد بإسناد صحيح مرسلاً قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**إنكم تعرضون علي بأسمائكم وسيماكم فأحسنوا الصلاة علي.**»

بل إن عرض الأعمال ليس خاصاً به صلى الله عليه وآله وسلم بل يعم قرابة الإنسان كما ورد من حديث أنس عند الإمام أحمد: «**إن أعمالكم تعرض على أقاريكم وعشائركم من الأموات فإن كان خيراً استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا: اللهم لا تمتهم حتى تهديهم كما هديتنا.**» وله شاهد يؤيده من حديث أبي أيوب عند

الطبراني وحديث جابر عند الطيالسي. وروى البيهقي في [الدلائل] عن ابن عباس رضي الله عنهما: «**أن عمر بن الخطاب ذكر له ما حمله على مقالته التي قال حين توفي النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال كنت أتأول هذه الآية (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً) فو الله إن كنت لأظن أنه سيبقى في أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها وإنه الذي حملني على أن قلت ما قلت.**» وتأوله رضي الله عنه- وهو من أهل اللسان- صحيح وإن كان لا يستوجب بقاءه صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا، ولكن تعرض عليه أعمالنا وبذا يكون شهيداً علينا.

٧- **دعاء الأموات:** ثبت في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**ما من أحد يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام.**» ورد السلام بحد ذاته هو دعاء بالسلامة لمن أنعم النظر، ويؤيده حديث سعد بن عبادة رضي الله عنه عند أحمد والبزار ورجاله رجال الصحيح، وفيه: «**أحببت أن استكثر من سلامك ومن البركة...**» ومنه إقراء سيدنا إبراهيم- عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام- السلام لهذه الأمة ليلة المعراج كما ورد في الصحيحين، بل إن الدعاء حاصل من عامة الأموات كما ورد في الحديث الذي ذكرناه في الفقرة السابقة (٦- عرض الأعمال) من رواية أنس عند الإمام أحمد وأبي أيوب عند الطبراني وجابر عند الطيالسي. وهنا ينبغي أن ننوه بالفهم الخاطئ لمعنى النداء للأموات، واعتبار بعضهم ذلك دعاءً، وهو ليس بدعاء ودليلنا قوله تعالى: ﴿بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً﴾ [البقرة: ١٧١] والعطف يقتضي المغايرة، وهم يحتجون بالحديث الشريف: «**الدعاء هو العبادة**» (أخرجه أحمد

والأربعة عن النعمان بن بشير) ويعتبرون كل نداء للميت دعاءً وبذا فكل من نادى ميتاً فقد عبده على هذه القاعدة، والجواب:

أولاً - الدعاء في الحديث السابق هو من الألفاظ الشرعية مثل الصلاة والزكاة، فهو لا ينطبق على اللفظ اللغوي لمعنى الدعاء، كما أن قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيۡهِمۡۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ﴾ [التوبة: ١٠٣] ليس المقصود بها ذات الركوع والسجود، ولو صح قولهم فكيف نفسر هذه الآية: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًاۚ﴾ [النور: ٦٣]، هل الدعاء بمعنى العبادة؟، وإذا كان حقاً بمعنى العبادة فلا فرق بين الحي والميت، حتى لو فرضنا على سبيل التنزل أن الدعاء هو العبادة على إطلاقهم، فلا يجوز أن نكفر الناس باحتمالات نبنيها دون أسس، والقاعدة تقول: «لازم المذهب ليس بمذهب» بمعنى ما يؤدي شرحه وتفكيكه إلى الكفر لا يحكم بكفر صاحبه إلا إن اعترف بالمؤدى.

٨- **حياة الأنبياء**: وهو اسم كتاب للحافظ البيهقي، نقل الكثير من أحاديثه الحافظ ابن حجر في [فتح الباري] (ج٦ ص٣٧٨) مصححاً بعضها، وناهيك بهما، وإذا كان الله تعالى أخبرنا أن الشهداء ﴿أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] فما من شك بأن حياة الأنبياء أعلى وأكمل وقد روى أبو داود والنسائي وابن ماجه وغيرهم بإسناد صحيح عن أوس بن أوس الثقفي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «...**فأكثروا علي من الصلاة فيه (يعني يوم الجمعة) فإن صلاتكم معروضة علي،قالوا:كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال: إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء**» فجزى الله الصحابة عنا

كل خير فقد بينوا لنا عن ثاقب فهمهم ولطيف استفهامهم، لأن العرض يمكن أن يكون على الأرواح دون الأجساد، فبسؤالهم قد أعلمونا وتركوا لنا نصاً قائماً بأن حياة الأنبياء صلى الله عليهم أجمعين كاملة بأرواحهم وأجسادهم.

٩- **حرمته صلى الله عليه وآله وسلم ميتاً كحرمته حياً**: وردت هذه العبارة عن أبي بكر وعائشة رضي الله عنهما كما في كتاب [أخبار المدينة] لابن زبالة ويؤيدها مارواه البخاري من حديث السائب بن يزيد رضي الله عنه قال: «**كنت نائماً في المسجد فحصبني رجل فنظرت فإذا عمر ابن الخطاب فقال: اذهب فأتني بهذين فجئته بهما، فقال: من أنتما أو من أين أنتما؟ قالا: من أهل الطائف، قال: لو كنتما من أهل هذا البلد لأوجعتكما، ترفعان أصواتكما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟**» وهو يدل على معرفة أهل المدينة في ذلك الزمان لقدره صلى الله عليه وآله وسلم وعدم رفع أصواتهم في مسجده، ومثله تستر السيدة عائشة رضي الله عنها بعد دفن عمر رضي الله عنه في حجرتها، وكيف كان الصحابة رضي الله عنهم يحرصون على عدم رفع الأصوات أو إحداث الضجيج المزعج حول الحجرة المباركة، وأيضاً وردت هذه العبارة(حرمته ميتاً كحرمته حياً) في كلام الإمام مالك السابق مع أبي جعفر. وقد قرأنا في كتب مصطلح الحديث أن من آداب المحدث والسامع أن يخشع ويتأدب في جلسته وكلامه خلال قراءة الحديث الشريف كما لو كان بحضرته صلى الله عليه وآله وسلم.

بل إن حرمة الأموات عامة تشبه حرمتهم أحياءً (مثل وجوب ستر العورة وعدم النظر إليها، وعدم جواز وطء الميتة، وعدم الجلوس على القبر ولا وطئه، وعدم

الدفن في القبر قبل فناء الأول...الخ) وقد روت عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «**كسر عظم الميت ككسر عظم الحي**» أخرجه أبو داود النسائي وأحمد

١٠- ما ورد في الآيات والأحاديث والآثار التي تدل على التوسل به قبل ولادته وبعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم:

آ- قبل النبوة:

- قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [البقرة: ٨٩] (وفسره ابن عباس رضي الله عنهما باستنصار اليهود باسمه صلى الله عليه وآله وسلم كما رواه البيهقي في [الدلائل] والحاكم في [المستدرك] من طريق سعيد بن جبير عنه بإسناد ضعيف، وعن عطاء والضحاك وأبي صالح عنه عند أبي نعيم في [الدلائل] وعن عطية عنه) وهو ظاهر لفظ الآية.
- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ...﴾ [الفيل: ١] (دون دعاء ولا تعمل) حيث دفع العذاب عن عبدة الأوثان ببركة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

- حديث آدم كما روى الحاكم والبيهقي في [الدلائل] عن عمر رضي الله عنه: قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لما اقترف آدم الخطيئة قال: يارب أسألك بحق محمد لما غفرت لي، فقال اله: يا آدم كيف عرفت محمداً ولم أخلقه؟ قال: يا رب لأنك لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله فعلمت أنك لم تضف إلى**

اسمك إلا أحب الخلق إليك، فقال الله: صدقت يا آدم إنه لأحب الخلق إلي، ادعني بحقه فقد غفرت لك، ولولا محمد ما خلقتك.» من رواية عبد الرحمن بن زيد بن اسلم وهو ضعيف وله من الشواهد عن ابن عباس عند الحاكم، وعن الباقر عند ابن المنذر، وعن أبي الزناد عند الآجري، وعن سعيد بن جبير عند ابن أبي الدنيا، وصححه السيوطي والقسطلاني والزرقاني بشواهده، ومن قبلهم الحاكم والسبكي.

- قصة موسى: قال صاحب [المغني] (ج٥ ص١٦) في باب الشركة: وفي بعض الآثار أن موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام قال: يا رب إن كان قد خلق جاهي عندك فأسألك بحق النبي الأمي الذي تبعثه في آخر الزمان، فأوحى الله تعالى إليه: «**ما خلق جاهك عندي وإنك عندي لوجيه.**»اهـ، ومنها طلبه أن يكون من أمة أحمد قبل أن يوجد صلى الله عليه وآله وسلم كما في [دلائل النبوة] لأبي نعيم والبيهقي.

- توسل نوح وإبراهيم وغيرهما به صلى الله عليه وآله وسلم كما نقله صاحب [شواهد الحق] عن السبكي عن المفسرين.

- قصيدة العباس التي امتدح بها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بين يديه، وفيها:

يا برد نار الخليل يا سبباً　　　لعصمة النار وهي تحترق

(أخرجه الطبراني)

- الاستسقاء بعبد المطلب (هو استسقاء ضمناً بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم).

- قصة حليمة كما عند أبي يعلى والطبراني ورجالهما ثقات، وقصة أبي طالب عند أصحاب السير، وقد ذكرتا آنفاً (ص ٤٢-٤٣).

ب- بعد الموت:

- حديث الأعمى وهو ما روى الترمذي والحاكم بإسناد صحيح عن عثمان بن حنيف رض الله عنه، قال: «**سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وجاءه رجل ضرير فشكا إليه ذهاب بصره، فقال: يا رسول الله ليس لي قائد وقد شق علي، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أئت الميضأة فتوضأ ثم صل ركعتين ثم قل: »اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد صلى الله عليه وآله وسلم نبي الرحمة، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك فيجلي لي عن بصري، اللهم شفعه في وشفعني في نفسي، قال عثمان: فو الله ما تفرقنا ولا طال بنا الحديث حتى دخل الرجل وكأنه لم يكن به ضر.**» وهو حديث متفق على ثبوته ورواه الطبراني بزيادة قصة دالة على أن عثمان بن حنيف فعله بعد وفاته صلى الله عليه وآله وسلم، وصحح الزيادة المنذري والمقدسي. ووردت القصة في تاريخ ابن أبي خيثمة: حدثنا مسلم بن إبراهيم، ثنا حماد بن سلمة، أنا أبو جعفر الخطمي عن عمارة بن خزيمة عن عثمان بن حنيف وفيه زيادة: «**وإن كانت حاجة فافعل مثل ذلك**» وهذا إسناد صحيح، ونص صريح في مشروعية هذه الصلاة لطلب أي حاجة (ولا تحتاج إلى ثبوت دعاء مباشر من النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما ادعى المخالف.)

- حديث بلال بن الحارث المزني: روى ابن أبي شيبة بإسناد صحيح من رواية أبي صالح السمان عن مالك الدار وكان خازن عمر، قال: «**أصاب الناس قحط في**

زمن عمر، فجاء رجل إلى قبر النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله استسق لأمتك فإنهم قد هلكوا، فأتي الرجل في المنام فقيل له: أئت عمر فأقرئه مني السلام وأخبرهم أنهم مسقون وقل له عليك بالكيس الكيس، فأتى الرجل فأخبر عمر، فقال: يا رب ما آلو إلا ما عجزت عنه.» ذكره الحافظ ابن حجر في [فتح الباري] وصحح إسناده وقال: «**وقد روى سيف في الفتوح أن الذي رأى المنام المذكور هو بلال بن الحارث المزني أحد الصحابة**»، وقال عنه ابن كثير في [البداية والنهاية]: «**وهذا إسناد صحيح**»، وفيه إجماع سكوتي على مشروعية التوسل حيث لم ينكر عليه عمر ولا غيره من الصحابة (ويعتقد أن كلامه معه كان على الملأ) ما فعله من التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد وفاته.والحق يقال إن إسناد هذا الحديث رجاله رجال الصحيحين وعلى شرطهما عدا مالك الدار وهو ثقة من كبار التابعين.

- حديث فاطمة بنت أسد رضي الله عنها: وهي أم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونشأ الرسول صلى لله عليه وآله وسلم في بيتها ولما توفيت في المدينة نزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم واضطجع في قبرها وقال: «**الله الذي يحي ويميت وهو حي لا يموت اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ولقنها حجتها ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي فإنك أرحم الراحمين...الحديث**» أخرجه الطبراني في [الكبير] و [الأوسط] رجاله رجال الصحيح سوى روح بن الصلاح وثقة ابن حيان والحاكم وفيه ضعف، وللحديث شواهد من رواية ابن عباس عند ابن عبد البر ورواية جابر عند ابن أبي شيبة وأخرجه الديلمي وأبو نعيم.

- عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «**قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من خرج من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا... الحديث**» أخرجه أحمد وابن ماجه وابن خزيمة وأبو نعيم وابن السني وحسن إسناده ابن أبي حاتم والحافظ المقدسي والعراقي في تخريج [الإحياء] وابن حجر العسقلاني في تخريج [الأذكار] والحافظ الدمياطي وغيرهم.

هذه الأحاديث وغيرها من الآثار تدل بمجموعها على ثبوت التوسل بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الأنبياء والأولياء دون قيد حياة ولا دعاء، ومنها ما تثبت به الحجة بمفرده دون عواضده لمن برئ من التعصب.

١١- **ما الفرق في النفع والضر بين الحي والميت؟**: إن المفرق هو المخالف بل هو المشرك شركاً أصغر، وإذا اعتقده فشركه أكبر.

وبناء على تلك النظرية الفاسدة- نظرية عجز الميت وقدرة الحي- لو طلب من الحي العاجز أمر لا يقدر عليه (كقولك للمصاب بالشلل اسقني كأس ماء) هل يحكم بكفر الطالب؟! أفتوني مأجورين. وكما ترى مما بيناه أنفاً: الأنبياء أحياء ليسوا بأموات، وحرمة غيرهم من الأموات كحرمتهم أحياء، وهم يسمعون وينفعون ويدعون وتعرض عليهم الأعمال.

ز- **عالم التجلي**: وبعد أن نقضنا نظرية الفرق بين الأحياء والأموات، يحق لنا أن نتساءل: هل يوجد فرق آخر (سوى الحياة والموت) في حيثية التوسل؟. والجواب نعم، وذلك في حالتين:

١- **حال التجلي:** فعندما يقول الله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦] ويقول كل نبي في ذلك الموقف: «**نفسي نفسي، إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله، اذهبوا إلى غيري...الحديث**» في هذا اليوم العصيب الذي أوقف وسائل هؤلاء المقربين يقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا لها».

ولو فرضنا أن وسيلته تنقطع في ظرف أو حال معين لكان انقطاعها في ذلك الظرف أو الحال أولى، ولكن قيامه بالشفاعة الكبرى وقتها دال على أن عملته رائجة في كل وقت صلى الله عليه وآله وسلم ولا انقطاع لوسيلته ولا استثناء لشفاعته بخلاف غيره. ورغم ذلك لا يحكم بالكفر على من توسل بمن تعطلت وسيلته لبرهة ما، كما هو الظاهر من حديث الشفاعة المتواتر.

٢- **حال الاصطلام:** وهو غيبة الشخص عن كل ما سوى الله تعالى، ويشير إليه قول عائشة رضي الله عنها: «**والله لا أقوم إليه ولا أشكر إلا الله تعالى**» (لما نزلت براءتها في حادثة الإفك) وعليه يحمل قول أبي يزيد البسطامي قدس الله سره: «استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة الغريق بالغريق».

٢- الألفاظ:

هناك بعض الألفاظ التي يركز عليها أصحاب المذهب الثاني، مثل:

أ- **لفظ الاستغاثة:** فيدعون أنه لا يجوز بغير الله، ويحتجون بحديث رواه الطبراني بإسناد فيه ابن لهيعة- وهو متكلم فيه- عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال للصحابة: «**قوموا بنا لنستغيث برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من هذا**

المنافق، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله» أخرجه الطبراني في (المعجم الكبير)، والجواب:

١- هل يعقل أن يجهل كبراء الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر رضي الله تحريم أو تكفير من نسب لفظ الاستغاثة إلى غير الله، وهل كفروا بذلك؟ إن المفاسد المبنية على هذا الاعتقاد لا حصر لها.

٢- مع ضعف الحديث وعدم صلاحيته للاحتياج وفساد معناه الظاهر، فقد ورد في مسند الإمام أحمد (وسنده أقرب وأولى) بلفظ: «**إنه لا يقام لي إنما يقام لله رب العالمين**» وهو دال ضمناً -بإقرار النبى صلى الله عليه وآله وسلم على مشروعية الاستغاثة - وموافق لما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم من النهي عن القيام له، ومناقض لتلك الرواية مما يدخله في حيز الاضطراب.

٣- ورد في البخاري في حديث الشفاعة: «**استغاثوا بآدم ثم موسى**» (وهو قاطع للخصومة)، وفي الصحيحين «... **يا رسول الله أغثني**» وكثير غيرها.

٤- ومثله ما رواه الطبراني عن عتبة بن غزوان مرفوعاً، وفيه: «... يا عباد الله أغيثوني...»

٥- بل إن القرآن الكريم ذكر المطر بلفظ الغيث دون حرج ولا إيهام ولو كان هذا اللفظ خاصاً بالله تعالى لما كان من اللائق أن يكون المطر غيثاً للبلاد والعباد، وقال تعالى: ﴿فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ﴾ [القصص: ١٥١].

ونقل صاحب (الشواهد) عن السبكي قوله: «**لا فرق بين ذكر التوسل والاستغاثة والتشفع والتوجه وطلب الدعاء عند كافة العلماء**».

ب- **لفظ «بحق فلان»**: وفيها فتوى أبي حنيفة وصاحبيه رحمهم الله بأنه يكره أن يقول أسألك بحق فلان لأنه لا حق لأحد على الله. والجواب يتلخص في النقاط التالية:

١- الفرق الشاسع الواسع بين الكراهية والكفر، وبين التعميم (عدم جواز التوسل مطلقاً) وتخصيص هذا اللفظ، وبين التفريق بين الحياة والموت وعدمه. فإذا قلنا بالعموم صرنا من أصحاب المذهب الأول (نفي الشفاعة مطلقاً).

٢- قد علل فقهاؤنا عدم الجواز بأنه لا حق لأحد على الله، فكل من دعا بذلك معتقداً بأن لأحد حقاً واجباً على الله دخل في حيز الكراهة، أما من لم يعتقد ذلك فلا بأس، كيف وقد ورد صراحة في الحديث الذي أخرجه الشيخان: «**أتدرون ما حق العباد على الله**» ومثله ما ذكر آنفاً من قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «**بحق السائلين عليك**» و «**بحق نبيك والأنبياء**»...

٣- قرر علماؤنا بأن مفهوم المخالفة معتبر في النصوص الفقهية، وعليه فمن لم يعتقد أن لأحد حقاً واجباً على الله فلا بأس بسؤاله، ويؤيده ماذكر في الفتاوى البزازية ٦ / ٣٥١ قال: وفي بعض النسخ قال: لاينبغي أن يقول بلا ذكر لفظ الكراهية ويقول مكان الحق الحرمة أي بحرمة محمد عليه السلام ١ هـ ــــ وهو يدل على تجويز ائمتنا للتوسل بغير لفظ الحق، وعليه عمل عامة المتأخرين لأن زيادة قيد في كتاب ما معتبرة عند الفقهاء. وتشير النصوص السابقة عن مالك والشافعي وأحمد رحمهم الله أنهم يخالفون الحنفية في

ذلك، وقد حصر العز بن عبد السلام استعمال هذا اللفظ في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم وخالفه الجمهور.

ج- **بعض الظواهر القرآنية والحديثية:** مثل ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ و﴿وإذا سألت فاسأل الله﴾ وهذه لا تخالف ما تقدم لما بيناه في التوطئة في أول البحث، وهي إن دلت على شيء تدل على أن المؤمن الكامل قلبه عامر بهذه الحقائق، ولسانه يطلب متوسلاً بأحباب الله إظهاراً لشرفهم وفقره بين يدي الله تعالى، مستشعراً عدم إخلاصه لتقصيره ومعاصيه، طامعاً في القبول والقرب ببركة أحباب الله.

بل إن العارف النابلسي قدس الله سره قال: إن من حرم الاستعانة بغير الله كافر لمعارضته لقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [البقرة: ٤٥]

٣- مبدأ سد الذرائع:

وهو الخشية من أن يؤدي التوسل إلى عبادة الأشخاص.

هذا المبدأ مختلف فيه عند علماء الأصول، أكثر من استعماله المالكية الحنابلة ولم يستعمله كثيراً الأحناف والشافعية ولكنه على كل حال:

أولاً- لا يصادم النصوص (وهنا لدينا من النصوص الكثيرة ما يقنع المنصف)

ثانياً- قسم الأصوليون المفاسد التي تسد لأجلها الذريعة إلى ثلاثة أقسام:

١- **مفسدة متحققة:** وقد اتفق العلماء على استعمال مبدأ سد الذرائع فيها، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِثْمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ﴾ [البقرة: ٢١٩].

٢- **مفسدة مظنونة**: (يغلب على الظن حدوثها) وفيها تتفاوت آراء العلماء حسب درجة الظن.

٣- **مفسدة موهومة**: واتفق العلماء على عدم الالتفات إليها.

وقضيتنا هذه تندرج تحت النوع الثالث (مفسدة موهومة) للأدلة التالية:

أ- قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد**» الموطأ وأحمد.

ب- قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**لقد طهر الله الجزيرة من الشرك...**» الطبراني وابن خزيمة، وفي معناه أحاديث كثيرة.

ج- قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**أتخوف عليكم الشرك والشهوة الخفية، قالوا: يا رسول الله أتشرك أمتك من بعدك؟ قال: نعم، إنهم لا يعبدون حجراً ولا وثناً ولا شمساً ولا قمراً ولكن يراؤون الناس بأعمالهم...**» أحمد والطبراني والحاكم وابن حبان.

د- قال صلى الله عليه وآله وسلم: «**وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا من بعدي...**» أخرجه البخاري.

فهذه ضمانات منه صلى الله عليه وآله وسلم- ونعم الكفيل هو -بعدم الشرك، وهي تدل على كماله صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم تؤد محبته- مهما بلغت- إلى عبادته كما حصل مع غيره صلى الله عليه وآله وسلم.

ثالثاً- هذه المفسدة لو فرضنا أنها متحققة أو مظنونة فلا فرق بين الحياة والموت لأن عيسى عليه الصلاة والسلام، وكذلك علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيرهما قد عبدوا في حياتهم.

رابعاً- لو كانت هناك مفسدة لكان كتاب الله أولى من حذر منها وخاصة إذا كانت مما يتعلق بالعقيدة والتوحيد، ومما ورد في (الشفا) للقاضي عياض أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ...﴾[آل عمران: ٣١] قالوا: إنما يريد محمد أن نتخذه حناناً كما اتخذت النصارى عيسى، فأنزل الله رغماً لهم: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢] بمعنى أنه لم ينظر إلى هذه المفسدة بل أشار إلى مفسدة أكبر وأعظم وهي التنقص من مقام النبي صلى الله عليه وسلم.

خامساً- حديث الأعمى: متفق على ثبوته، وهو مدني لأن راويه أنصاري، فهل يعقل أن يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم- الحريص علينا الرؤوف الرحيم بنا- للأعمى لمصلحة جزئية محدودة لكي يستعمل هذا الحديث لمدة عشر سنوات على الأكثر ثم تضل الأمة كلها باستعماله دون أن يبين لهم ذلك صلى الله عليه وآله وسلم، أولم يكن الأولى- لو لم يكن هذا الحديث عاماً- عدم ذكره أبداً خشية الشرك، أو التبيين عند ذكره بأنه خاص في حياته صلى الله عليه وسلم، كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه قال للركن: «**والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم استلمك ما استلمتك**» أخرجه البخاري بل إنه ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم بلفظ: «**إني لأعلم أنك**

حجر لا تضر ولا تنفع، ثم قبله»، ومثله عن أبي بكر عند ابن أبي شيبة. كما أن ظواهر النصوص تدل على خلاف ذلك، فقد حرم الله على لسان رسوله صلى الله عليه وآله وسلم بعض الأشياء التي تضاهي فعل المشركين في بداية الدعوة ثم أبيحت بعد ذلك، منها تحريم أواني المسكرات مطلقاً، ومنها زيارة القبور على رأي...

ملاحظة:

كره بعضهم المبالغة في مدح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مطلقاً اعتماداً على حديث: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله**» (البخاري وأحمد» وهذا الحديث ظاهر بيّن، والنهي إنما هو عن إضفاء صفات الألوهية عليه، أما ما دون ذلك فداخل في قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]. قال صاحب البردة:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم   واحكم بما شئت مدحاً فيه واحتكم

٤- بعض الآيات القرآنية:

وأشهرها في الاستعمال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣] وأمثالها. ونلفت نظر المؤمن المحب لنبيه إلى نقطتين هامتين في أمثال هذه الآيات:

أولاً- قوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾. وما سمعنا بأحد عبد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو غيره من المتوسل بهم، ومن ادعى ذلك كذبته الأحاديث الآنفة الذكر (البند٣)

ثانياً- قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾، يعني عن غير أمر الله لأن هناك شعائر أمر الله بتعظيمها كالأنبياء والأولياء... والكعبة وغيرها، وأشياء اتخذها الناس من دون أمر الله كالأوثان وغيرها.

ونذكركم بقول ابن عمر رضي الله عنهما في الخوارج: «**عمدوا إلى آيات نزلت في الكافرين فحملوها على المؤمنين**» أخرجه البخاري.

٥- لم يرد عن السلف:

والجواب مما أسلفنا أنه ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه علي وابن مسعود وعثمان بن حيف وبلال بن الحارث المزني، مع إقرار عمر والملأ من الصحابة له، ومن بعدهم مالك وأبو يوسف والشافعي وأحمد ومعروف الكرخي وابن أبي فديك، ولم يرد عن واحد من السلف خلاف قولهم، بل إن السبكي رحمه الله نقل الإجماع على ذلك. ولنا أن نتمثل بقول القائل: «**رمتني بدائها وانسلت**» ونسأل المخالف هل ورد عن أحد من السلف التفريق بين الحياة والموت؟ إن كنت ناقلاً فالدليل!

٦- عدم الاستجابة:

ولم أكن أريد ذكر هذه النقطة لأنها أضعف من أن تحتاج إلى رد، لولا أن بعضهم سود صفحات مؤلفه بها، وجوابها: ؟ كم من دعاء لله تعالى لم يستجب لصاحبه، فهل يدل ذلك على عدم مشروعية الدعاء.

تنويه:

لايتوسل أو يتشفع إلا محب عارف وبيانه فيما يلي:

إذا جلست مع رجل له وجاهة عند متنفذ لك إليه حاجة فلن يخطر ببالك أن تستشفع بهذا الرجل إلا إذا عرفت وجاهته عند ذلك المتنفذ.

وأيضاً لن تطلب منه الشفاعة إلا إذا كانت صلتك به قوية، وهذا ظاهر، ولله المثل الأعلى.

الخلاصة

الأنبياء أحياء في قبورهم وكذا أكابر الصديقين ممن هم فوق الشهداء في الرتبة، تعرض عليهم الأعمال ويدعون للأحياء ويصل نفعهم، ويسمعون زائرهم، وحرمتهم بعد وفاتهم كحرمتهم أحياء عند الله وعند عباده، والحقيقة إن آية واحدة في كتاب الله: «ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً» إذا كان لفظها عاماً- وهو كذلك- تغني عن كل هذا البحث لأنها دالة صراحة على مشروعية زيارته صلى الله عليه وآله وسلم -ولو بسفر- والتوسل به، ودالة ضمناً على مشروعية التبرك به صلى الله عليه وآله وسلم.

والخلاف بيننا وبينهم:

- إن كان في مسألة اجتهادية فهو موجب لحرمانهم لما فاتهم من استشعار قربه صلى الله عليه وآله وسلم وحرصه على أمته والتلمس لفيوضاته والزيادة من حبه. (من بدا جفا).

- وإن كانت مسألة اعتقاد فيخشى على صاحبها الكفر أو التنقص لمقام الحبيب الأعظم صلى الله عليه وآله سلم.

- وإن كانت مسألة محبة فصاحبها مبعد وجاف، وقد تصل به إلى حدود الكفر.

وصلى الله على سيدنا محمد النبي

الأمي وعلى آله وصحبه المكرمين

والحمد لله رب العالمين.

المحتويات


الوسيلة


دار التوفيق